الشعر الجزائري الحديث ورسالة الإصلاح
Algerian Modern Poetry and the Reform Message

د/ إبراهيم لقان
أستاذ محاضر قسم (أ)
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة – معهد الآداب واللغات
brahimleguene@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2018/07/29	تاريخ لقبول: 2018/09/17	تاريخ النشر : 2019/02/10

ملخص البحث

مجال هذه الدراسة هو ظاهرة ارتباط النص الشعري الجزائري بالواقع في فترة من فترات تاريخ الجزائر التي كان فيها الأديب حامل الثقافة الوطنية، الضحية الأولى للمأساة.

هذه الفترة هي فترة الثلاثينيات التي تمثل قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مستهل القرن الثاني للاحتلال، هذه الجمعية التي استقطبت النص الأدبي شعرا ونثرا بمنابرها وصحافتها تحديدا لملامح المعركة التي انفتحت لهذا النص، وتركيزا على الواجهات التي سيرابط فيها الشعراء الذين وجدوا في العنصر السياسي والاجتماعي والديني مجالا واسعا للقول والكتابة .

وقد تميزت هذه الفترة بالتصاعد الإصلاحي والازدهار الفكري والصراع السياسي، فكان للشعراء والكتاب فيها صولات وجولات، فالمشاريع الماثلة والقضايا المطروحة للنقاش ساعدت القصيدة الشعرية على تحديد معالمها الموضوعاتية اجتماعيا وتاريخيا ودينيا وسياسيا، تلكم هي القضايا الإصلاحية التي غذت النصوص الشعرية التي سيرصد بعضها هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: شعر جزائري؛ حديث؛ رسالة؛ إصلاح.

Abstract:

This study discusses the link between the Algerian poetic text and reality during -an Algerian historical period when the writer was the holder of the national culture as the first victim of the tragedy.

The period in question is the nineteen thirties which represents the establishment of the *Association of Algerian Muslim Ulema* at the beginning of the second century of the colonization. This association attracted the literary text with its two forms, forums and journalism which identified the features of the cultural battle; these texts focused on the interfaces that will

be established by the poets who found in the political, social and religious components a plenty of space for speech and writing.

This era was characterized by upward reforming, cognitive development and political conflict, issues about which poets and writers had what to say. These issues and projects helped the poem to define its thematic features socially, historically, religiously and politically. These are the reform issues that fueled the poetic texts, and some of which will be highlighted in this article.

Keywords: Algerian poetry, modern, message, reform.

مفهوم الإصلاح

(صلح) الصّلاح ضدّ الفساد، صَلح يَصْلَحُ ويَصْلُحُ صَلاحا وصُلوحا...ورجل صالح في نفسه من قوم صُلحاء....وأصلح الشيء بعد فساده أقامه[1]. و الإصلاح نقيض الإفساد، قال تعالى: **"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ". سورة البقرة 11.**

وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم على لسان النبي شعيب عليه السلام: **"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب" سورة هود 88.**

الصلاح في الاصطلاح:عرفه الإمام الغزالي (ت 505هـ) بعدما بين واجب المسلم نحو نفسه بتهذيبها، فذكر معنى الإصلاح بقوله: "ثم يعلم ذلك أي الذي قام بتهذيب نفسه وصلاحه ثم أهل بيته وتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم إلى أهل محلته ثم إلى أهل السواد المكثف"[2].

وقد عرفه ابن تيمية (728هـ) أيضا بقوله:" هو صلاح البلاد والعباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن صلاح المعاش والمعاد في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس".[3]

تمهيد

من يدرس الشعر الجزائري في زمن الحركة الإصلاحية، يجب عليه أن يربط بينه وبين سياسة الاستدمار الفرنسي ومشاريعه التي تهدف على جعل الجزائر تابعة لفرنسا جغرافيا وثقافيا، هذا الاستعمار الذي سخر جميع الوسائل والإمكانات، وتفنن في ابتكار الوسائل لتحقيق ذلك،

وأهم ما ركز عليه هو السيطرة الكاملة على ثروات البلاد ومواردها الطبيعية، والتدمير المعنوي للشعب الجزائري وإشعاره أنه دون مستوى المحتل فوظف لذلك الكثير من مثقفيه، وحضّر نخبة مستلبة من أبناء الجزائر للقيام بذلك " فظهر فن جديد من فنون الأدب في اللغات الغربية لا يعنى إلا بتحري الصفحات السود من تاريخ الشعوب المغلوبة، والغوص على مثالبها، وتشويه حسناتها، وطمس آثارها، ونسبة ما اشتهرت به من منجزات حضارية إلى شعوب أخرى."[4]

ومن وسائل المحتل كذلك الإبادة الثقافية التي مارسها على الثقافة الجزائرية، فقد أغلق المدارس والمراكز الدينية التي كانت تنبعث منها الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة " ونهب جنوده الكثير من المخطوطات العربية القيّمة وأتلفوا بعضها".[5]

ومن أخطر أسلحة الاستعمار كذلك تغريب الجزائريين عن لغتهم ففي أواخر القرن التاسع عشر زار أمير شعراء مصر (أحمد شوقي) الجزائر، وعندما عاد إلى القاهرة تناقلت الصحف قوله المشهور: "ولا عيب فيها (أي الجزائر) غير أنها قد مسخت مسخا فقد عهدت مساح الأحذية يستنكف عن النطق بالعربية، وإذا خاطبته لا يجيبك إلا بالفرنسية"[6]

في مثل هذه الظروف التي آلت إليها الجزائر يومئذ، بعث الله للجزائر رجلا عقائديا مصلحا، هو الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي نذر نفسه لبعث النهضة الفكرية في الجزائر مع مجموعة من كبار العلماء والأدباء والشعراء أسفرت مجهوداتهم عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت مبادئها ومواقف أعضائها تعطي صورة واضحة عن التمسك بثوابت الأمة الجزائرية، ورفض الاحتلال والإدماج باسم الثلاثي المقدس: الدين والثقافة والوطن " فكانت أعمالها المطبوعة بطابع تربوي تثقيفي مدخلا إلى موقف سياسي"[7].

وكان دور هذه الجمعية ريادي لم يُسبق له مثال في تاريخ الحركة الوطنية ويتمثل ذلك في " إثارة النخوة الوطنية، والعزة القومية، وتنمية الوعي الديني والاجتماعي، فأثّرت الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية بمفاهيم ما زالت تمد الحياة الجزائرية بمدد لا ينفذ من الطاقة الحية، والإدراك السليم للأمور"[8].

إذن لقد كان ظهور الحركة الإصلاحية معادلا موضوعيا للظروف التاريخية التي مرت بها الجزائر، واستجابة طبيعية لمتطلبات المرحلة بكل أبعادها وفق الظروف التي أنتجتها. وقد تطورت

مسيرة الحركة الإصلاحية تبعا للفعل التاريخي المتجدد الذي جعل منها حركة قوية مؤثرة ذات مناعة، استعصى على المحتلين أن يفتوا عضدها وينالوا منها، لأنها استمدت حيويتها وفاعليتها من الشعب، وقد اشتد ساعدها وتجذرت مبادئها لدرجة أصبحت فيها تمثل مركز المواجهة الشعبية، فتحملت بشجاعة لواء التصدي الحازم لكل الفئات التي أوجدها الاستعمار معتمدة على الشباب، ووقفت وراء كل نشاط حتى قال عنها الدكتور أبو القاسم سعد الله: " فكانت جمعية العلماء من الناحية الفكرية على الأقل، عبارة عن دولة داخل دولة، وكان العاملون فيها يحسبون بكل صدق أنهم ليسوا أناسا كالناس، ولكنهم كانوا جنودا في معركة وراءها- إذا كسبوها- النصر والعزة للوطن، وللإسلام وللعروبة"[9]

فقد سعت هذه الجمعية بروح عالية لفتح مئات المدارس، وإنشاء المساجد والنوادي الثقافية، والجمعيات الخيرية، ولم تتوان في خوض حرب ضد الطرق الصوفية الموالية للاستعمار، وكان للصحافة الدور الكبير في نشر أفكارها وطرح مبادئها، فكانت بحق كما قيل عنها: " إذن فإنشاء جمعية العلماء المسلمين كان في الوقت المناسب وكان ضرورة قصوى تقتضيها الظروف والتحديات"[10]

وبذلك عبرت الجمعية عن أبعاد المرحلة التاريخية، فجسدت الآمال التي التزمت بها، وقطعت شوطا بعيدا في العمل لإعادة ثقة الإنسان الجزائري بنفسه، بعد أن كان تائها، يعاني آلام الخيبة والانكسار، وهيأت له ظروف العمل الجماعي .

و ليس من أهداف هذا البحث أن يجري مسحا شاملا للشعر الجزائري الذي واكب حركة الإصلاح، ولكنه يحاول محاولة متواضعة تتبع أهم الموضوعات التي استقطبت الشعراء المنضوين تحت لواء هذه الحركة، وفق المحاور التالية:

1 - الإصلاح الديني

2- الدعوة إلى نشر العلم والمعرفة

3- استلهام الأمجاد والتمسك بالجذور التاريخية

4- مواكبة الأحداث السياسية.

5- متابعة نشاط جمعية العلماء والتعبير عن المواقف

وقد يبدو هذا البحث ذا طابع انتقائي وهو أمر يقود إلى ذاتية في الأحكام والنتائج.

أولا: الإصلاح الديني

لقد كان الدين الإسلامي الحصن المنيع للأمة الإسلامية حفظها على مر العصور من التشرذم، ودفع عنها كيد الأعداء، وبفضله تم دحر الغزاة عبر أزمنة متعاقبة، وعلى مبادئه تم تأسيس دولة عظيمة دان لها كسرى وأذعن قيصر. وكانت الجزائر جزءا من هذه الأمة ابتليت بأسوأ استدمار في التاريخ سلط عليها سهامه من كل وجهة على أهم أسسها: اللغة العربية والدين الإسلامي، لأنه يدرك مدى التلازم الشديد بين هذين العصرين في حفظ أصالة الشعب الجزائري، فاستعمل طبقة من المثقفين، وفئة من أدعياء الدين، وغمرها بكامل فضله، فكانت نقمة على الدين بما أحدثته من بدع ، وما بثته في الشعب من عقائد فاسدة وفكر ميّت، الأمر الذي جعل محمد البشير الإبراهيمي يقول: " إن المرابطية هي الاستعمار في معناه الحديث، والمكشوف وهي الاستعباد في صورته الفظيعة "[11] .

وكان الشاعر محمد العيد لسان حال الحركة الإصلاحية ومن أبرز الأعلام الذين نبهوا الناس إلى غفلتهم وأيقظوهم من سباتهم، وفتحوا أعينهم على المؤامرة إذ يقول:

أفيقوا فهذا الدين دين ربوعكم تنازله الأحداث شر نزال
تحاول نكباء الضلالة نسفه وترميه أشلاء الردى بنبال
فقوموا مقامات الدفاع حياله ليأمن هذا الدين كل ضلال[12]

وكانت تعرية أدعياء الدين وفضح سوءاتهم من بين وسائل الرّد المؤثرة عليهم، فقد كانوا يحيطون أنفسهم بقداسة مرهبة للعامة، ويتمظهرون بمظاهر مختلفة مع ما يتبع ذلك من فكر غريب، يرى الدكتور صالح خرفي أن : "هذا التطرف في الانحراف، أكبر مبرر للتطرف والعنف في الهجوم عليه، فوجدنا شعرا ينتفض حقدا على التلاعب بالدين"[13] . و يصور محمد العيد ذلك في هذا المقطع من قصيدته الخالدة التي ألقاها سنة1933م بمدرسة الشبيبة بالجزائر العاصمة:

وفشا الدجل فالولاية دعوى كل ذي سبحة تطول وذقن
وغلا القوم في الولي فظنوا أنه كالإله يغني ويقني[14]

و يذكر الطيب العقبي من جهته الانحراف الذي طال الطرق الصوفية بعد ما كانت مراكز لتخريج العلماء والمجاهدين، أصبح أصحابها مجرد انتهازيين – رغم المكانة التي تمتعوا بها– ومخادعين يبتزون المال:

فما الطرق في هذا الزمان مجادة ولنكها يبغي بها أهلها الرزقا
تجارة قوم عـــاجزين، سبيلهم سبيل ضلال جانبوا العلم والصدقا
وشيخهم الأتقى (الولي) بزعمه إذا ما رأى مالا أمال له عنقا
أولئك عباد الدراهم، ويلهم سيمحقهم ربي، وأموالهم محقا
متى ألقهم، أبصر شياطين فتنة ويا ليت أني لا أراهم ولا ألقى[15].

وفي الثلاثينيات يفضح حمزة بوكوشة التناقض المريع بين مظهر (الولي) الخادع، ومخبره الزائف، فهو يظهر للناس في مسوح التقى والزهد، ويختلي لنفسه في صورة شيطان:

ربع قرن قضيته في الصحافة دائبا ساعيا لنشر الثقافة
لم أؤيد مدى الحياة خؤونا غادرا بالبلاد، أو ذا خرافة
يدعي العلم والتصوف حتى يكسب الفلس، أو يروم اختطافه
ظنه الجاهلون شيخا تقيا وهو من يحتسي كؤوس السلافة[16]

والأدهى والأمر هو اعتقاد العامة لمنطق الطرقيين الغريب آنذاك ، وخضوعها له، بل واعتقادها أن ذلك هو الدين الصحيح، فإذا العوام سوائم تُهش بعصا الضلالات، يقول محمد السعيد الزاهري مصورا ذلك:

كانوا طوائف شتى، كل طائفة تطيع شيخا لها في كل ما زعما
إن قال إني(ولي)صدقوه وإن هو ادعى الغيب، قالوا أحكم الحكما
وإن تعلم بعض الشيء تهجية قليلة، هتفوا يا أعلم العلما
وإن هو ارتكب الفحشاء فاضحة فلا محالة، معذور وقد أثما
أو احتسى الخمر قالوا إنها عسل ولا غرابة في هذا، و لا جرما
في كفه المنع والإعطاء عندهم والدين والخير في ما شاد، أو هدما[17]

ثم يهيب الزاهري بالدور الكبير الذي قام به شيوخ الجمعية في إصلاح ما أفسده غيرهم من رجال الطرق المنحرفة، وكيف تغير سلوك العباد ووجه البلاد، ويدعو لهم بالرعاية الإلهية من هول ما لاقوه من أذى على أيدي الطرقيين:

ومذ أتى علماء الدين واندفعوا يستنهضون إلى إصلاحها الهمما
ويعملون على نشر العلوم بها أضحت تشابه في أعمالها الأمما
رعاكم الله أهل العلم إنكم تعلِّمون الورى القرآن و الحكما
لقيتم من جفاء الجاهلين بكم أذى كثيرا وشرا يقذف الحمما
وحسبكم مكن شداد الأمر أنكم قاومتم الجهل حتى صار منهزما[18].

ثانيا: الدعوة إلى نشر العلم والمعرفة

إذا أردنا الحديث عن نشر العلم في الحركة الإصلاحية، تكفي الإشارة إلى أن جمعية العلماء كانت تشرف على الإصلاح المتكامل اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا، وكان دأبها في إصلاح القضايا السابقة هو إحداث ثورة علمية بعدما تهيأت أسبابها: "بعد تذليل العقبات وتمهيد الطرق التفت أولئك المصلحون إلى الناحية الثانية، ناحية الإصلاح العلمي، فدرسوا مسارب الجهل إلى جسم الأمة وكيف تكون مكافحتها، وأساليب العلم القديمة وكيف يكون إصلاحها...فتحوا المدارس وهذبوا أساليب التعليم، وقربوا منال العرفان إلى الأفهام فكانت في الشعب الجزائري الذي كان مضرب الأمثال في الأمية والرطانة، نهضة علمية مباركة، تضم بين أبنائها ثلة من العلماء الفطاحل، والخطباء المصاقع، والكتاب المجيدين، والشعراء الفحول"[19].

ومن أولئك الشعراء المجيدين: محمد العيد وأبو اليقظان وحمزة بوكوشة وأحمد سحنون.

فهذا محمد العيد:" يقارن بين العلم والجهل بين القوة المادية المخربة وبين القوة العلمية البانية"[20]

فيقول إن العلم هو سلطان الوجود، وهو وسيلة السيادة والمجد ومناعة الأوطان، ويرى أن أغلى ما يشيده الإنسان من حصون، وما يرفعه من قلاع يتمثل في المدرسة التي تنتج العقول، والمصنع الذي ينتج وسائل التنفيذ، أما الجهل فهو كالغراب الذي لا يحوم إلا على الخراب وعلى الأرض اليباب:

العلم سلطان العقول فسد به من شئت أو ذد عن حياضك وادفع
والْجأ له بدل الحصون فلا أرى حصنا كمدرسة سمت أو مصنع
قل للجزائر انشئي كلية تمحو جهالة شعبك المتسكع
الجهل غيم فوق أرضك ضارب غطى على أرجائها والأربع
الجهل أشبه بالغراب فما له من منزل غير الخراب البلقع[21].

وفي قصيدة (إلى العلم) للشاعر محمد العيد تتجلى النظرة التقييمية الشاملة لمكانة المدرسة في النهضة الجزائرية الحديثة، ومقامها الأمثل في الحركة الوطنية:

أراك – بلا جدوى– تضج من الظلم إلى العلم إن رمت النجاة إلى العلم
ولا تدّرع إلا المعارف، إنها سوابغ ينبو الطعن عنها فلا يدمي
رعى الله في أرض الجزائر نهضة مباركة في العلم، تسمو إلى النجم
وترمي إلى أهدافها بقصودها موفقة الأنظار صائبة السهم
و تنشئ للفصحى مدارس عدّة مشيَّدة البنيان، محكمة الدّعم[22].

ويوم واصلت النهضة الإصلاحية رسالتها بعد الحرب العالمية الثانية، أسفرت المدرسة الحرة عن وجهها الحقيقي، وفرضته على المستعمر في وضح النهار، وغدت مدرسة حربية رسالتها تخريج دعاة الثورة وحملة السلاح، وأصبحت رسالة المعلم فيها الجهاد والتحرير وفك الأسر، وأصبح الطلبة هم الجند والعتاد والفداء كما نلمس ذلك في قصيدتي أحمد سحنون: (إلى المعلم) وإلى (التلميذ) التين رفعتا شعارا لكل مدرسة حرة[23].

هات من نشء الحمى خير عتاد وأدخرهم لغد جند جهاد
هات نشأ صالحا يبني الحِمى و يفك الضاد من أسر الأعادي
هاته جندا قويا باسلا إن دجى الخطب يكن أول فادي
إن في يمناك شعبا كاملا يتنزى بين ظلم و اضطهاد
لم يزل في القيد منهوك القوى منذ ألقى للأعادي بالقياد
يا مربي النشء، يا باني النهى يا محلَّ الحب في كل فؤاد
قُدْ إلى العلياء أشبال الحمى وإلى تحريرهم، كن خير حاد[24].

وتنعكس الصورة ذاتها على(التلميذ) الملجأ الوحيد للشعب في محنته، بعد أن قعدت به كل وسائل النهوض، حيث أصبح التلميذ هو السلاح المنتظر، وإن الشاعر سحنون ليستعجل تخرجه، ليخوض المعركة، فهو لايتوسم في مستقبله رسالة علمية، بقدر ما يتلمس فيه موقفا بطوليا وهو ما تتطلبه المرحلة:

لك في كل حشا نبع وداد يا رجاء الضاد، يا ذخر البلاد
شعبك الموثق لم يبق له من عتاد فلتكن خير عتاد
لج الاستعمار في طغيانه كل يوم منه ألوان اضطهاد
لغة الضاد التي ما برحت لغة الإعجاز، سيمت بكساد
دينك الإسلام في أوطانه ناله المكروه من أيدي الأعادي
فمتى تحمي حِمى سيمَ الأذى فعلى نشء الحمى كل اعتماد
ومتى تفدي بلادا، طالما سامها أعداؤها فالحر فادي
كن لها في سلمها رمزا علا كن لها في حربها جند جهاد
هذه غايتك المثلى، التي إن تحصلها، تنل كل مراد[25].

ولا يختلف دور المدرسة عند إبراهيم أبي اليقظان عن سابقه فالمدرسة هي المهد الذي منه يتخرج حملة السلاح، وفيه يتكون الجند المنتظر لتحرير الوطن ليعيش حرا طليقا كسائر البلدان التي تنعم بالحرية، ولهذا فمن الواجب على أهل الفضل إذا كان همهم تأسيس أركان للشعب أن تكون عنايتهم الأولى بهذه المدرسة:

وما الفضل إلا للمدارس إنها مغارس مجد الشعب في كل أزمان
هي الأم هي المهد للأمة التي رأت أن تعيش بين سائر أقران
هي الثروة الكبرى هي الذخر و المنى هي الساعد الأقوى لها والجناحان
هي القلعة الكبرى هي الحصن في البلى يصد به حراسه كل طغيان
فما مات شعب ضم بين ربوعه مدارس علم و هي مورد ظمآن
تهيئ نشأ كي يذودوا عن الحمى و يعلوا منار الحق في كل بلدان
جدير بأهل الفضل أن يحفلوا بها إذا همهم في الشعب تأسيس لأركان[26].

ويصف لنا محمد السعيد الزاهري مشاعر الداعية، وما يلاقيه من متاعب وما يتعرض له من أذى وما يصيبه من شر، وما يشعر به من اغتراب وهو ينشر العلم في مجتمع يتحكم فيه الجهل، ويسيره الولاء الأعمى للطرق الصوفية:

لم أجد في الشقاء من هو أشقى بحياة من عالم محروم
لا ولا في متاعب الدهر صعبا مثل نشر العلوم بين العموم
بين قوم عمي البصائر صم ليس فيهم غير الجهول الأثيم
هو في الجهل كالحمار، و لكن هو في المكر كالمريد الرجيم
يسمع الحق واضحا مستبينا فيعيه وعي العتل الزنيم
ثم يسعى عليَّ إثما وشرا بافتيات، وغيبة، ونميم
أنا والله عفت فيهم حياتي وبقائي فوق هذا الأديم
ليتني ما قرأت حرفا ولا أعرف فرقا بين كاف و جيم[27].

ثالثا: استلهام الأمجاد والتمسك بالجذور التاريخية

من طبيعة الأمم في فترات نهوضها أن تلوذ بماضيها وتستوحي أمجادها السالفة، وتستحيي بطولاتها خاصة إذا كان هذا الماضي مجيدا " وقد قيض الله للعرب ماض زاهرا وحضارة راسخة الأصول، بوأتهم مكانة مرموقة بين لأمم في تاريخ البشرية"[28].

و قد اقتدت الحركة الإصلاحية بالسلف الصالح، فحين فتح رجالها أعينهم على وضع البلاد وجدوا حاضرها مؤلما، أرضا مسلوبة وشعبا مضطهدا إرادته مشلولة، وحين نظروا إلى ماضيهم وجدوا أمة من أقوى وأعرق الأمم فتمثلوا بقول الشاعر:

وكم رأينا من فروع طويلة تموت إذا لم يحييهن أصول[29].

فنشط رجالها لإحياء تراث الأمة برافديه العربي الإسلامي، وهي تقارع أساليب الاستعمار التي استهدفت سلب الإنسان الجزائري مقوماته التاريخية وبيان تاريخ الأجداد الذي يمثل روعة التحدي والإصرار والتضحية دفاعا عن الحق والعدالة، وقد لخص الإمام ابن باديس أهداف جمعية العلماء الإصلاحية سنة 1935 بقوله:" القرآن إمامنا، والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا، وخدمة المسلمين وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا"[30].

و إذا انتقلنا إلى موقف الشعر من هذه الدعامة القوية في بعث الحركة الوطنية الجزائرية، فإننا نجده موقف رائدا، فقد أتاحت له النهضة الإصلاحية بمناسباتها وأعيادها الدينية والقومية الفرص الواسعة : "وقد أدرك الشعر تجاوبا مع تكتيك النهضة الإصلاحية، أن الحاضر لا يمكن أن يصلح إلا على ضوء الماضي، وأن التاريخ مرآة الماضي، ومصعد الحاضر"[31].

وفي هذا المضمار يلتفت محمد العيد إلى التاريخ يذَّكر المستنكفين عن ماضيهم، ويرد عليهم بالوقائع التاريخية الثابتة، وبالحجج الدامغة على عراقة بلاده الجزائر، وإيغالها في التاريخ، ويذكرهم بالمعالم البارزة، معددا الأماكن التي شهدت حضارة ومدنية مازالت آثارها ماثلة للعيان، لا ينكرها إلا جاحد، هذه الحضارة صنعها رجال لا يعرفون الوهن، ورعوها بالحلم والعلم:

أين منكم مهابة وانتصاف أم سكنتم إلى احتقار وجبن
لا تقولوا هان الجدود فهنا ساء نشء له بهم سوء ظن
في تلمسان في بجاية في تيهرت في القلعة ازدهى كل فن
يوم كانت مهاجر الشرق والغر ب مثابا كمعهد وحصن
وعليها من الملك ذوي العز ة و البأس كل سهران فطن
دعموا البر دعموا البحر بالأعلام من منشآت مدن وسفن
ومشوا في مناكب الأرض صيدا بين حرارة ملائك جن
يزعون الشعوب رأيا ورعيا ويسوسونها بحكم وإذن[32].

لكن هذه الالتفاتة التاريخية لا تنسي الشاعر المآل المريع الذي انتهت إله تلك الأمجاد بسبب تقاعس الخلف الذي لم يحافظ عليها ولم يعمل على إحيائها ويكتفي بالتمني، وهو أمر يدعو إلى الحسرة والندم :

وطوتهم يد الزمان كما تطوي يدُ الكاتب الكتاب و تُثني
وتقضى ملك الجدود فلم يبـ ق بأيدي البنين غير التمني
يا لمجد مضيع غير مجد عض كف عليه أو قرع سن[33].

أما الشاعر محمود بن دويدة فقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وقف ليس على أطلال الأحبة–كما فعل شعراء الجاهلية– ولكن على أطلال مجد العرب الضائع:

وقفت برسم العرب، وقفة خاشع وقلت: ضياعا ما نظمتم من الدر
معاهد كانت – والورى في جهالة– محط رحال العلم، والعز والنصر
فلله ربعا، كم حبا الغرب سؤددا، ومجدا يحار فيه فتى الشعر
يقول: انظروا ما شيدت يد علمهم على الرغم مما غيرته يد الدهر
ويندب بدر العلم إذ كان ساطعا ببغداد نبراس الحقائق والفخر
و يبكي ويستبكي، فيرسل أبحرا من الدمع حتى فاض دمعي على صدري[34].

وتنهض جمعية العلماء بأعباء النهضة الثقافية في الجزائر، وفق ضرورات المرحلة التاريخية التي تقتضي تعبئة الأجيال، وتوحيد صفوفها تحت راية العلماء الذين يعملون لإحياء تراث الأمة والاقتداء به، وذلك يقتضي تعيين القدوة التي يجب على الشباب أن يحدو حدوها من التاريخ الإسلامي المجيد، وتمثل قصيدة أحمد سحنون(شباب محمد) آفاق ذلك، إذ يقول مخاطبا الشباب:

فيا جند الشباب إلى المعالي مضيا مثلما يمضي الشهاب
إذا لم تقتفوا آثار طه فليس لكم إلى طه انتساب
ولستم بالأسود إذا رضيتم بأن تسطوا بأرضكم الذئاب
ولستم نسل آباء كرام وأنفسكم كأرضكم نِهاب
أيمسي ابن البلاد غريب دار ويُرى للدخيل بها جناب
ويمسي ابن الفتوح رهين أسر وطعم الأسر للأحرار صاب؟[35].

ويدعو سحنون شباب الجزائر خاصة وشباب الأمة العربية عامة إلى العمل الجاد الذي يربط حاضرهم بماضي أمتهم عبر جهادها التاريخي الطويل، فعلى هَدْيِه تحقق الأمة طموحها في المجد والتطور:

يا فتية الضاد حان الوقت فاطرحوا هذا الونى وانهضوا فإن الناس قد طاروا
سيروا على نهج آباء لكم سلفوا فإنهم في طريق المجد قد ساروا
شقوا الزحام إلى العلياء واقتحموا أخطارها إنما العلياء أخطار
أرواح آبائكم في الخلد قد هتفت تحرروا فجميع الناس أحرار[36].

أما الشيخ أبو اليقظان، فلا يرى سبيلا لإصلاح ما أفسده الدهر إلا أن يرسلها صرخة في قصيدته (قم يا محمد)، يستحضر أيام الأمة ويقارن ماضيها الزاهر بحاضرها المؤلم، ويدعو إمام المرسلين ليقوم ويرى بأم عينيه ما آل إليه وضع الأمة، فقد ذُلت بعد عز، وأهين الإسلام في عقر داره، وأُحِل الحرام، واستأسد العصاة بالمتقين، وسطا الجهال على ذوي العلم:

قم يا محمد، يا خاتم المرسلين وحكيم أهل الأرض طرا أجمعين
وانهض رسول الله من جوف الثرى وانظر بعينك كيف حال المؤمنين
تجد الأمور تحولت عن حالها وتدهورت وهوت لأسفل سافلين
فالأمة السمحاء ديست ذلة والدين في عهد السياسة قد أهين
حل الحرام بلا نصوص تقتفى وبلا مبالاة بخير الحاكمين
واستفحل الجهال واشتد البلا وتعاظم الأنذال ضد المصلحين.[37]

رابعا: مواكبة الأحداث السياسية

لم يكن الشعر في زمن الحركة الإصلاحية بمعزل عن الأحداث السياسية، بل كان من أهم المنابر المعبرة عن أفكار الحركات السياسية والجمعيات "فقد كان ملتزما إلى أبعد الحدود، إذ غرق في خضم القضايا الوطنية والقومية"[38].

وقد اختار بعض الشعراء الانضواء تحت لواء الأحزاب، كما فعل مفدي زكريا، الذي انضم إلى حزب الشعب، ومحمد العيد الذي رابط في صف جمعية العلماء، وواكب بشعره كل القضايا السياسية التي خاضت معامعها عندما صار ذلك ضرورة اقتضتها الظروف.

ومن القرارات السياسية المستفزة لجمعية العلماء، قرار إغلاق مساجد العاصمة في وجه القائمين بالوعظ والإرشاد من أعضاء الجمعية سنة 1933 " هذا القرار الذي كان بإيعاز من رجال الدين الرسميين المناهضين للحركة الإصلاحية، وبتواطؤ مع النيابة الجزائرية"[39].

وقد عبر محمد العيد عن هذا الحدث، وأظهر وعيا سياسيا كبيرا ومطامح ثورية، يقول في هذا المجال ساخرا من النواب الذين يطأطئون رؤوسهم خضوعا لذوي السلطة، كاشفا مساوئ الاستعمار ونواياه البغيضة من غلق المساجد والمدارس:

أفدني برأي في النيابات هل حوت أساود في قاعاتها أم وسائدا

وإلا فما تلك السموم التي سرت فمن ذاق منها طأطأ الرأس هامدا
ألم يأتها أن المعابد حجرت على الذاكرين العامرين المعابدا
وكم من مآو أو مكاتب عطلت على أنها تهدي البنين المراشدا
فيا نائبا ناب البلاد بحادث فخلف شعبا قائما فيه قاعدا
على أي ظهر كنت سوطك منزلا وفي أي نحر كنت سيفك غامدا
وما لك ترغي في النيابة موعدا ألم تك من قبل النيابة واعدا؟[40].

وتظهر الأبعاد السياسية للقصيدة السابقة في كشف الانحراف عن المصلحة العليا للشعب، أو عن القضية الوطنية، وفضح التناقض بين الوعود المعسولة أثناء الدعاية الانتخابية، والتنكر للشعب وإدارة الظهر له بمجرد الجلوس على عرش المسؤولية.

وفي قصيدة أخرى لا يرى الشاعر في النيابات إلا مصائب نازلة على الأمة، ولا يرى في القيادات إلا أغلالا في أعناق الشعب، تحد من آماله، ذلك لأن هذه القيادات لم تنبثق عن إرادة وطنية حرة، لأن الاستعمار هو الذي صنعها، وقد خاطها على مقاسه لنشر الفتنة بين أبناء الشعب الواحد طبقا لشعاره المشئوم (فرق تسد)، يقول محمد العيد:

يا بلادا ما للزعامة فيها قوة أو لزاعميها اتحاد
النيابات كلها نائبات والقيادات كلها أقياد
أرغم المرشدون فيك على الصمـ ت وبث عليهم الأرصاد
كم يلاقي من العقوبات حر ذنبه الوعظ فيك والإرشاد[41].

أما(مفدي زكريا) فيضع النقاط على الحروف في المأساة الحزبية والنيابية، ويعدد مظاهر بشاعتها، ويلتفت إلى ما آلت إليه السياسة في الجزائر من فوضى، وإلى من تجسمت فيهم من أقزام، وغربان وأبقار معممة، وإلى مجالات الصراع التي انحصرت في الجدران الملطخة بالشعارات، والمنابر المرفوعة للتهريج، والمستعمر على الربوة يجلس جلسة السلامة[42] :

وفي الجزائر نصابون، همهم على الدراهم مقصور ومحدود
وللزعامة دجالون ليس لهم من الزعامة إلا الخمر والغيد
وللشعائر هداجون، قد جثموا حول المقاصر أحلاس قنافيد

وفي المجالس أصنام، تحركها يد المعمر، تحميها التقاليد
وفي القيادة، أبقار معممة للعار تدفعها غربانها السود
وفي الوظائف أخشاب مسندة لا يستجيبون للحسنى إذا نودوا
وفي الثياب ذئاب ليس يشبعها إلا دم الشعب، مسفوح ومصفود[43].

وقد استمد الشعراء من الوضع المنحرف للسياسة الجزائرية أقسى العبر، وأقوى دافع للوحدة الوطنية، وأكبر عامل على العمل الإيجابي البناء، وكان الشعراء لا يدخرون جهدا في تبصير الشعب بالعواقب السيئة لهذا الانحراف السياسي، وتذكيره بالرسالة المقدسة التي تسموا فوق التكالب السياسي، وبالهدف البعيد الذي لا ينال إلا بالتضحية، يواصل مفدي زكريا في نفس القصيدة:

وما السياسة ضرب فوق مائدة إن السياسة إنشاء وتجديد
وما الزعامة أقوال وشقشقة إن الزعامة إصلاح وتشييد
وما النضال احتجاجات على ورق إن النضال كفاءات ومجهود
و ما الجهاد جدار أنت تكتبه إن الجدار كبعض الناس جلمود[44].

خامسا: متابعة نشاط جمعية العلماء والتعبير عن المواقف

لقد كان وجود جمعية العلماء وفق أهدافها الإصلاحية المتمثلة في الإصلاح الشامل، كان مُلهما للشعراء الذين كانوا يتغنون زهوا بوجود هذه الجمعية، ويتابعون أعمالها ويشيدون بها، وقد كان محمد العيد لسان حالها دون منازع، فهو الذي يحيي بحماسة أعمالها، ويبرز دورها ومكانتها في حمل لواء المعرفة كما يتجلى ذلك في الكثير من قصائده، ومن أمثلة ذلك قصيدته (تحية العلماء) التي ألقاها احتفاء بانعقاد المؤتمر التأسيسي الأول للجمعية سنة 1931:

على الرحب حلوا أجمعين على الرحب فأنتم ضيوف في حمى الله والشعب
طلعتم علينا كالكواكب في الدجى وسرتم إلينا كالسحائب في الجذب
جحاجحة عرب القرائح و اللغى فأهلا وسهلا بالجحاجحة العرب
بسطنا لكم منا قلوبا حفية فدوسوا عليها لاتدوسوا على الترب[45].

وقد منح الشاعر ثقته للجمعية وظل وفيا لمبادئها وأهدافها، حيث نجده في القصيدة نفسها يعرض آراءه التي تنسجم مع أهداف العلماء للدلالة على أنه جندي في صفوفهم:

هنيئا لكم هذا اللقاء، فإنه بشير بما تبنون من راسخ الحب
فخطوا له منكم حدودا منيعة من العلم والشورى ومن صالح الكسب
وأبقوه للأجيال صرحا ممردا دليلا عليكم خالدا طيلة الحقب
أعيدوا على الإسلام هدي محمد بما كان يمليه على الآل والصحب
وسيروا على نهج التفاهم والرضى وتحت هدى التوفيق جنبا على جنب[46].

وكانت مؤتمرات الجمعية من مصادر استيحاء الشعراء أفكارهم والتعبير عن مواقفهم، والدفاع عن أهداف العلماء، لأنها تمدهم بأحداث فكرية ودينية واجتماعية، وقد أنشد أحمد سحنون قصيدته (جمعية العلماء أدت رسالتها) يبرز فيها أهم الإنجازات التي حققتها الجمعية في مختلف الميادين، ولعل دوافع القصيدة تعود إلى قوة إحساس الشاعر بمدى الظلم والقهر الاجتماعي الذي يقع على الشعب، ليوحد صفوفه ويجمع كلمته يقول سحنون:

هذه الجزائر لا خابت أمانيها قد وحدتها جراحات تعانيها
الظلم أيقظ أهلها بها وبنى من ضعفها قوة لا العدل بانيها
وليس كالظلم يحدو أمة قعدت عن العلا ويبث العزم بانيها
غنِّ الجزائر واهتف للألى وقفوا في وجه كل مغير من أعاديها
(جمعية العلماء) أدت رسالتها رغم العوادي، ولم تبرح تؤديها
لم تألُ جهدا و لم تخضع لطاغية ولم تضق بأذى ممن يعاديها[47].

أما مفدي زكريا، فيرى أن جمعية العلماء هي أمل الشعب الوحيد في خلاصه وتحريره من العبودية والاستغلال، وبالتالي فهي جديرة بالثقة التي وضعها فيها الشعب، إذ يقول:

يا دار أنت على التقوى مؤسسة مبناك بالطهر مرصوص ومشدود
يا دار حملت آمال البلاد ففي أحشاك اليوم أشبال صناديد
(دار ابن باديس) في سرتا يظللها نصر، ألا إن نصر الله موعود
ما بين جدرانها تحيا الجزائر لا من فوق جدرانها تتلى التهاجيد

يا نشأة العلم، لا تقعد بكم همم عن الجهاد فإن الوقت محدود
كونوا الخلاص لشعب لا نصيب له ممـن يعذبه إلا المواعيد
وحطموا القيد والأغلال أن له فما وجسما: فموصود ومصفود[48]

خاتمة نستطيع القول إن ارتباط الشعر الجزائري الحديث بالحركة الإصلاحية كان أمرا طبيعيا، لأن من أهداف هذه الحركة ما كان يستجيب لمطامح هؤلاء الشعراء الذين نشأوا في أجوائها، ونهلوا من معارفها واستجابوا لمبادئها، فكانوا صوتا لها ينشدون قصائدهم في محافلها ومؤسساتها الدينية والثقافية، ويعبرون عن طموحها ويسجلون أعمالها.

فاستمد الشعر مادته من الواقع الجزائري استجابة لمتطلبات المرحلة، التي فرضت على الشعراء أن يُسخِّروا شعرهم للتعبير عن آمال وآلام شعبهم، والشاعر الحقيقي في نظر رمضان حمود، هو الذي يكون صورة صادقة لنفسه ولعصره، ولا ينقاد في إبداعه إلا لصوت ضميره، وليس معنى هذا أن يكون شاعرا ذاتيا أنانيا، يتغنى باهتماماته الشخصية وحدها، بل بالعكس من ذلك، إن الشاعر من هذا المنظور هو الذي يتحمل دور الريادة في الحياة والمجتمع في المجال السياسي و الديني والاجتماعي. عليه أن يقاوم الاستبداد بلسان حاد لا يرده عن ذلك اضطهاد أو قوة أو جبروت، فإن الشعر الذي لا يحرك همة الشعب ليتطلع إلى الاستقلال والحرية، ولا يذكر بواجبه المقدس ووطنه المفدى خيانة كبرى وخنجر مسمم في قلب المجتمع.

هوامش:

[1]– ابن منظور: لسان العرب، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ص516.

[2]– الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد) ، إحياء علوم الدين، ج2، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص342.

[3]– ابن تيمية (شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام): السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تح: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، (د ت)، ص 94.

[4]– نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1988،ص46.

[5]– المرجع نفسه، ص53.

[6]– جريدة الشهاب: مجلد10 مارس1934 نقلا عن سلمان نور،المرج السابق ، ص58/57.

[7]- نور سلمان : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير،ص130.

[8]- محمد الصالح رمضان: (جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي) مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، عدد83، سبتمبر أكتوبر1983، ص359-360.

[9]- أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص49.

[10]- محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1،1985 ، ص110.

[11]- صالح خرفي: شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ت) ص34.

[12]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1992، ص13.

[13]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 36.

[14]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص111.

[15]- محمد بك: محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع: (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة الحاج لخضر باتنة، 2008-2009، ص 177.

[16]- صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث، ص43 .

[17]- المرجع نفسه، ص38/37 .

[18]- المرجع نفسه، ص20 (الملحق).

[19]-إبراهيم أبو اليقظان (موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري)، البصائر، العدد1، ليوم:12/27/ 1935، دار البعث قسنطينة، ص5-6.

[20]- أبو القاسم سعد الله: محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، دار المعارف بمصر، ط2، 1988، ص140.

[21]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص145.

[22]- المصدر نفسه، ص202 .

[23]- ينظر: صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص153.

[24]- أحمد سحنون: الديوان الأول، منشورات الحبر، الجزائر، ط2،2007، ص14.

[25]- المصدر نفسه، ص16.

[26]- إبراهيم أبو اليقظان: الديوان،ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية الجزائر، ط2، 1989، ص129.

[27]- محمد ناصر: الشعر الجزائري اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2006. ص279 .

[28]- عمر الدقاق: الاتجاه القومي في الشعر العربي، جامعة حلب، سوريا، ط3، 1977، ص238.

[29]- المرجع نفسه، ص239.

[30]- عبد جاسم الساعدي: الشعر الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة، منشورات التبيين،الجاحظية، الجزائر، 2002، ص52.

[31]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص100.

[32]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص109-110.

[33]- المصدر نفسه، ص110

[34]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص105.

[35]- أحمد سحنون: الديوان، ص194/195.

[36]- المصدر نفسه، ص27.

[37]- إبراهيم أبو اليقظان: الديوان،ج1، ص71-72.

[38]- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، دار البعث،قسنطينة، ط1، 1987، ص37.

[39]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص193.

[40]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص97.

[41]- المصدر نفسه، ص120.

[42]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص181.

[43]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، ط3، 2000، ص266-267.

[44]- المصدر نفسه، ص267.

[45]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص147.

[46]- المصدر نفسه، ص نفسها.

[47]- أحمد سحنون: الديوان، ص25.

[48]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص269-270.